العمـــــارة المملـــــوكيـة – الجزء (1)

MAMLUK ARCHITECTURE

(648-922 هـ/1250-1516 م)

قضى الغزو المغولي في القرن السابع الهجري على الخلافة العباسية (1258م) وخضعت سائر دول المشرق الإسلامي من تركستان وبلاد فارس والأناضول والعراق وبلاد الشام للتتار.

أما في مصر فقد استولى المماليك على الحكم من الأيوبيين قبل ذلك بعشر سنوات، أي منذ عام 1250م. خشي المماليك من امتداد الغزو المغولي إلى مصر، فخرجوا لحربهم وانتصروا عليهم في معركة عين جالوت سنة 1260 م، فانسحب التتار وتركوا مدن الشام ليدخلها السلطان المملوكي سيف الدين قُطُز، ولتقوم دولة تشمل إضافة إلى مصر بلاد الشام والحجاز وليبيا. من أشهر سلاطين المماليك الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وولديه الأشرف خليل والناصر محمد.

تابع المماليك محاربة الصليبيين حتى تم الانتصار عليهم نهائيا عام 1291م. كما عني المماليك بتنشيط التجارة الدولية وازدهر الاقتصاد وتقدمت العلوم والصناعات والفنون في عهدهم وأقيمت مشاريع عمرانية هامة. ولكن ذلك لم يستمر بسبب الصراع بين فئات المماليك، مما أدى إلى إضعاف الدولة ووصول موجة جديدة من الغزو المغولي إلى بلاد الشام بقيادة تيمورلنك سنة 803 هـ/1401 م. وكانت نهاية المماليك على يد العثمانيين عام 922هـ/1516 م.

استمرت الدولة المملوكية ما يزيد عن 250 سنة تطورت خلالها فنون العمارة وتنوعت وتجددت العناصر المعمارية والزخرفية. وتنافس السلاطين والأمراء في تشييد المساجد والمدارس والبيمارستانات والخانات والحمامات والقصور وغيرها.

1. عمـــارة القـــاهرة في عـــهد المـــاليـك

كانت القاهرة عاصمة المماليك وشيدوا فيها الكثير من الأبنية، التي لا يزال عدد كبير منها شاهدا على النشاط العمراني والمعماري لهذه الفترة. تميزت مباني السلاطين الأوائل أي سلاطين المماليك البحرية كالظاهر بيبرس وقلاوون وأولاده بضخامتها وفخامتها. وكان أغلبها على شكل مجمعات معمارية كبيرة ومتعددة الطوابق، تشمل المسجد والمدرسة والتربة والسبيل، كما تضم أحيانا بيمارستانا وخانقاها.

1.1. مجمـع الســلطان قـــلاوون في القاهرة Complex of Sultan Qalawun

يتألف من مدرسة وتربة وبيمارستان. شيده السلطان سيف الدين قلاوون سنة 684 هـ/1285 م. يقع هذا المجمع في القاهرة القديمة في محلة النحاسين، وهو يتكون من ثلاثة مبان رئيسة. المدرسة والتربة تطلان بواجهة طويلة على شارع المعز مباشرة، بينما يقع البيمارستان خلفهما. للمجمع بوابة مشتركة تتوسط الواجهة الرئيسة وتفضي إلى دهليز طويل، يفصل بين أجزاء المبنى المختلفة وتطل عليه أبواب هذه الأقسام بالإضافة إلى نوافذ. البيمارستان كان متهدما وأعيد بناؤه منذ فترة قريبة.

تحتل **المدرسة** الجزء الجنوبي من المبنى، ويتم الدخول إليها إما عبر باب يؤدي مباشرة إلى الفناء الداخلي أو من خلال باب آخر يفضي إلى دهليز منكسر ومن ثم إلى الفناء المستطيل الذي يتوسط المدرسة. تحيط بالفناء أربعة أواوين مرتفعة، أكبرها يقع في الشرق ويضم قاعة الصلاة وله واجهة تطل على الفناء بثلاث فتحات، الوسطى أوسعها، تؤدي كل من الفتحات إلى مجاز من المجازات الثلاث التي تتألف منها قاعة الصلاة، والتي تتعامد مع جدار القبلة ويفصل صفان من الأعمدة والأقواس بينها.

أما القسم الشمالي من المبنى فهو **تربة السلطان قلاوون**، ألحقت بها مئذنة لاحقا. تعتبر هذه التربة من أهم الترب المملوكية من حيث التصميم والضخامة. يتقدم قاعة الدفن فناء صغير يحيط به إيوان ورواقان جانبيان. الفناء يفضي بشكل محوري إلى التربة. وهي قاعة مربعة تقريبا، أبعادها 22 ×20 م، ترتفع فوقها قبة تقوم على قاعدة مثمنة الأضلاع، محمولة على أربع دعائم وأربعة أعمدة فوقها رقبة مثمنة، فتحت ضمن كل من أضلاعها نوافذ علوية تتكون من نافذتين فوقهما نافذة مستديرة يحيط بالجميع قوس مدبب. القبة خشبية مجددة، بقي من الأصل مقرنصات خشبية في الزوايا. يغطي الممر المحيط بالقبة سقف مستو خشبي يتميز بسقفه المستعار ذو الزخارف الهندسية البديعة. القاعة غنية بزخارفها فهي تزدان بالكسوة الرخامية والنقوش الجصية.

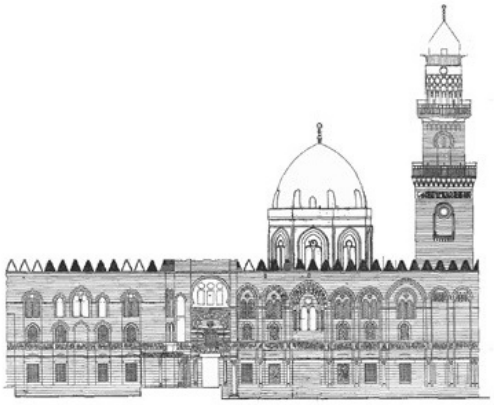

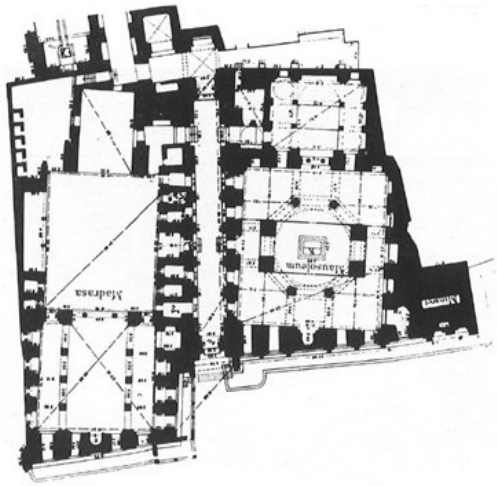

مجمع السلطان قلاوون في القاهرة: الواجهة المطلة على شارع المعز - مسقط التربة والمدرسة
القبة التي تعلو التربة - الفناء الداخلي للمدرسة

تتميز الواجهة الخارجية الحجرية، التي يطل بها المجمع على الشارع، بثلاثة صفوف من النوافذ التي تم تجميعها بشكل شاقولي ضمن دخلات غائرة، تبدأ بمجموعة من الأعمدة التي تحمل أعلاها أقواسا مدببة متدرجة. فتظهر الواجهة وكأنها رواق مسدود. وتنفتح في عمق جدران الرواق نوافذ متنوعة تبدأ بنوافذ مستطيلة بسيطة ذات ساكف أفقي تعلوها نوافذ ذات قوس مدبب ذات شبك من الزخارف الجصية ومن ثم نافذة مزدوجة تنتهي بقوس نصف دائري وفوقها فتحة دائرية وكلها تحتوي على شبك من الزخارف الجصية يقابلها في الداخل الزجاج المعشق. يخترق هذا التشكيل الشاقولي كورنيش أفقي وشريط كتابي يمتدان على طول الواجهة إضافة إلى الشرافات المسننة التي تتوج امتداد الواجهة من الأعلى.

2.1. جامع ومدرسة وتربة السلطان حسن في القاهرة Mosque, Madrasa and Turba of Sultan Hasan

تعد مدرسة السلطان حسن من أشهر أبنية المماليك في القاهرة، وهي يتميز بضخامتها وارتفاع مبانيها. تنسب إلى السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون. تم بناؤها بعد وفاة منشئها بعامين ودفن في التربة الملحقة بها. تاريخ البناء المنقوش على بابها هو 764 هـ/ 1361 م. وهي تقع في ميدان صلاح الدين، أسفل القلعة.

مسقط المدرسة متطاول غير منتظم. يتم الدخول إليها من الجانب الشمالي الغربي، عبر بوابة فخمة، يبلغ ارتفاعها 26 م ويصعد إليها من الجانبين بدرج. البوابة غائرة على شكل إيوان ينتهي في الأعلى بصفوف من المقرنصات ونصف قبة محززة. يلي الباب بهو تعلوه قبة وتحيط به أواوين صغيرة. ومن هنا يفضي دهليز منكسر إلى الفناء الداخلي، الذي تعد مساحته صغيرة مقارنة بحجم البناء. يتوسط الفناء ميضأة مكونة من بركة، فوقها شادروان مثمن يقوم على ثمانية أعمدة. تحيط بالفناء أربعة أواوين مرتفعة موزعة على محاور متعامدة (تصميم متصالب). إيوان القبلة، حيث يقوم مسجد المدرسة، هو أكثر الأواوين اتساعا، يبلغ ارتفاعه حوالي 20 م، وهو ينتهي بقوس مدبب يتكون من تناوب حجارة بيضاء وحمراء. الأواوين مسقوفة بقبوات أسطوانية تكرر قوس الإيوان.

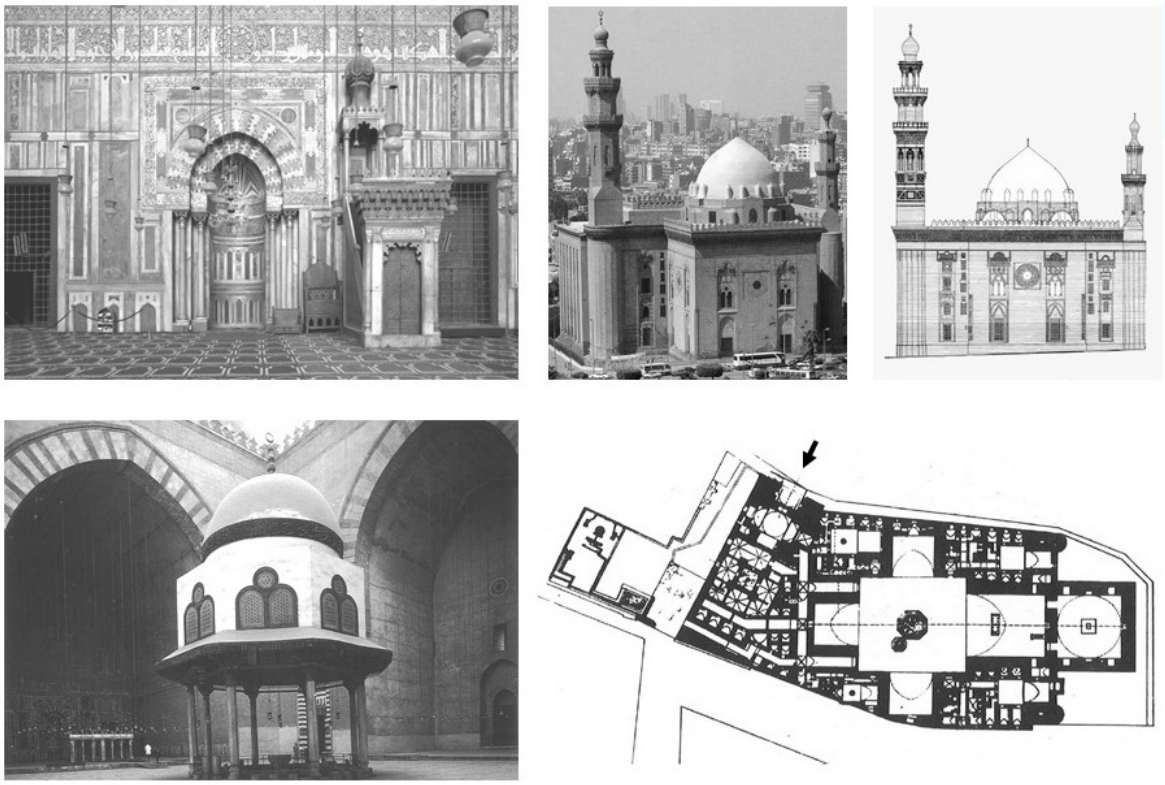

جامع ومدرسة وتربة السلطان حسن في القاهرة: الواجهة الجنوبية الشرقية - جدار القبلة في الإيوان الكبير
المسقط - الصحن مع الأواوين المحيطة والشادروان

جدار القبلة مغطى في قسمه السفلي بكسوة رخامية مميزة، تنتهي بشريط كتابي عريض. يتميز ضمن هذا الجدار المحراب الذي ينتهي بقوسين من الحجارة الرخامية المتداخلة أو ما يسمى بالحجارة المعشقة.

هناك في جدار القبلة باب يؤدي إلى التربة التي تقوم خلفه. وهي قاعة مربعة تبرز بكاملها عن جدار القبلة، مسقوفة بقبة خشبية، جددت في العهد العثماني. يحف بالتربة مئذنتان، تهدمت الشمالية منها وأعيد بناؤها بحجم أصغر. أما المئذنة الجنوبية الأصيلة، فتوضح ميزات المآذن المملوكية. فهي تتألف من عدة طبقات تبدأ مربعة ومن ثم يتم الانتقال إلى مسقط مثمن يليه مثمن أصغر. للمئذنة شرفتان للأذان محمولتان على مقرنصات. تنتهي العليا بينهما بما يسمى الشادروان، المؤلف من ثمانية أعمدة رشيقة (سويريات) تحمل قبة بصلية صغيرة.

المبنى مستقل وبالتالي له واجهات خارجية من جميع الجهات وهي تمتاز بتجميع النوافذ ضمن ما يشبه المحاريب الشاقولية الغائرة قليلا، التي تنتهي بمقرنصات أو بأقواس مفصصة وتضم نوافذ متوضعة فوق بعضها، مما يعطي الواجهة تنسيقا شاقوليا لافتا. بينما يشكل النهاية العلوية الأفقية كورنيش مقرنص بارز يحيط بكامل المبنى ويعلوه صف من الشرافات على شكل زنبقة.

3.1. وكالــة الغــوري في القــاهرة Wakalat al-Ghuri

الوكالة مبنى معد للأغراض التجارية والسكنية. بني في عهد السلطان قانصوه الغوري سنة 919 هـ/ 1505 م. وهو بناء ضخم يتكون من خمسة طوابق تحيط بفناء داخلي واسع يدخل إليه من بوابة تتوسط الواجهة الرئيسة المطلة على الشارع.

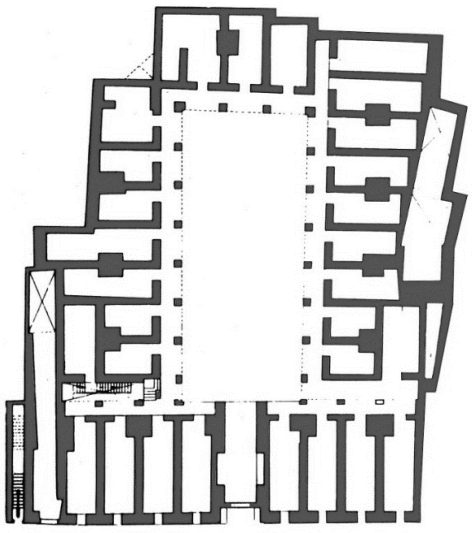

وكالة الغوري في القاهرة: مسقط الطابق الأرضي - الفناء الداخلي

يحيط بالفناء الداخلي رواق يقوم على دعائم حجرية وهو يتقدم الطابقين الأرضي والأول ويؤدي إلى مخازن تجارية مسقوفة بالقبوات.

أما الطوابق الثلاثة العليا فتضم شققا سكنية، يدخل إليها عبر ممرات خلفية في الطابق الثاني ويتم الوصول إليها من الشارع عبر درج جانبي مستقل. تتميز الشقق السكنية بكون كل منها يمتد على ثلاثة طوابق يربط بينها درج خشبي داخلي (مبدأ التريبليكس). تنفتح الشقق على الفناء والشارع بنوافذ وشرفات بارزة مزودة بمشربيات خشبية تؤمن الخصوصية لكل شقة إضافة لكونها عنصر بيئي هام يقي من أشعة الشمس ويسمح في الوقت نفسه بحركة الهواء.